الفصل السَّادس

١. النبيُّ أيُّوب.
٢. النبيُّ إبراهيم.
٣. الإيمان الحقيقي.
٤. هاجر وإسماعيل.
٥. إسماعيل وإسحاق.
٦. الربُّ يُدَبِّر.

١ . النبيُّ أيُّوب

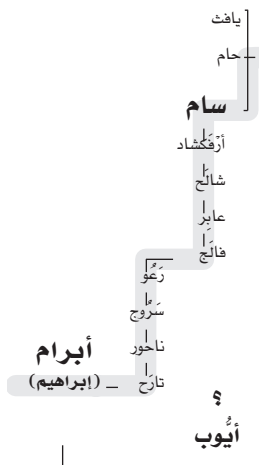

بعد أن بَلبل الله ألسنة الناس في بابل، انقضت عدَّة أجيال قبل أن يُدوِّن لنا الكتاب المقدَّس تدخُّل الله التالي في التاريخ. وخلال كل تلك السنين، لم ينسَ الله وعده بإرسال المُخلِّص. ورغم أنَّ مُعظم الناس عاشوا حياتهم دون أن يؤمنوا بالله، إلاَّ أنَّ كُلَّ جيلٍ كان شاهداً على أشخاص آمنوا بوعود الله. ومن بين هؤلاء الأشخاص نبي يُدعى أيُّوب.

كان أيُّوب رجُلاً بارَّاً احتمل آلاماً نفسيَّةً وجسديَّةً يعجز العقل البشري عن تصوُّرها! فمن أجل تعليم البشر دروساً هامَّةً، سمح الله للشيطان بأن يُجرِّد أيُّوب من مُمتلكاته، وأفراد عائلته، وصحَّته. لكن رُغم كل هذا البؤس والشقاء، فقد عرف أيُّوب أنَّ أسوأ مُشكلة لديه هي حالة الخطيَّة المُلازمة له مُنذ ولادته. ففي أحد الحوارات بين أيُّوب والله، قال أيُّوب لله:

«وَحَتَّى لَوِ اغْتَسَلْتُ بِالثَّلْجِ وَنَظَّفْتُ يَدَيَّ بِالإِشْنَانِ، فَإِنَّكَ تَطْرَحُنِي فِي مُسْتَنْقَعٍ نَتِنٍ حَتَّى تَكْرَهَنِي ثِيَابِي» (أيُّوب ٩: ٣٠، ٣١ – التفسيرية)

كان أيُّوب يعرف أنَّ غسل جسده لن يجعله بارَّاً أمام الله القُدُّوس الذي بلا خطيَّة. فحتَّى لو نَظَّف جسده من الخارج، فسوف يبقى خاطئاً من الداخل ويستحق دينونة الله. لهذا، كان أيُّوب يخشى من دينونة الله ويتمنَّى وجود شخص وسيط يمكنه أن يتقرَّب من الله نيابةً عنه وأن يضع إحدى يديه على أيّوب واليد الأخرى على الله لمصالحتهما معاً:

«لَيْسَ بَيْنَنَا مُصَالِحٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى كِلَيْنَا. لِيَرْفَعْ عَنِّي عَصَاهُ وَلاَ يَبْغَتْنِي رُعْبُهُ» (أيُّوب ٩: ٣٣، ٣٤)

ورغم أنَّ أيُّوب كان يُقدِّم الذبائح الحيوانيَّة عن خطاياه، إلاَّ أنه كان يعرف أنَّ تلك الذبائح لا تقدر أن ترفع عنه أُجرة خطاياه. فقد كانت مُجرَّد غطاءٍ مُؤقَّت. وربما كانت معرفته هذه، إلى جانب إدراكه لعَظَمة الله وقداسته، هي التي دفعته إلى طرح سؤالٍ مهم جداً:

«... فَكَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اللهِ؟» (أيُّوب ٩: ٢)

كان أيُّوب يتساءل كيف يمكنه أن يتخلَّص من خطيئته وأن يحصل على برٍّ مُساوٍ لبر الله لكي يكون مقبولاً في محضر الله القُدُّوس! ويُمكن تلخيص رَدّ الله بالكلمات التالية: «ليس عليك يا أيُّوب سوى أن تثق بي وسوف أهتم أنا بمُشكلة خطيَّتك. فسوف أُعطيك البِرَّ الذي تحتاج إليه لكي تمثُل في محضري. فقط ثق بي!»

وقد كان هذا هو ما فعله أيُّوب تماماً. فقد وضع ثقته في الله وأشار إلى أنَّ المُخلِّص سيأتي إلى الأرض ليُتمِّم وعد الله لآدم وحوَّاء بتخليص البشريَّة من عواقب الخطيَّة المُدمِّرة. وقد قال أيُّوب عن المُخلِّص إنه فاديه:

«أَمَّا أَنَا فَإِنِّي مُوقِنٌ أَنَّ فَادِيَّ حَيٌّ، وَأَنَّهُ لاَبُدَّ فِي النِّهَايَةِ أَنْ يَقُومَ عَلَى الأَرْضِ. وَبَعْدَ أَنْ يَفْنَى جِلْدِي، فَإِنِّي بِذَاتِي أُعَايِنُ اللهَ . الَّذِي أُشَاهِدُهُ لِنَفْسِي فَتَنْظُرُهُ عَيْنَايَ وَلَيْسَ عَيْنًا آخَرَ، قَدْ فَنِيَتْ كُلْيَتَايَ شَوْقاً فِي دَاخِلِي.»

(أيُّوب ١٩: ٢٥-٢٧ - التفسيرية)

لقد عرف أيُّوب أنَّه حينما يموت فسوف يرى الله. وكان يتوق إلى ذلك لأنه يثق بالله ويتمتَّع بعلاقة سليمة معه. وسوف نرى لاحقاً لماذا دعا أيُّوب المُخلِّص الموعود وَليَّه أو فاديه.

٢ . النبيُّ إبراهيم

في نفس تلك الفترة التي عاش فيها أيُّوب تقريباً، كان هناك زوجان اسمهما «أبرام» و«ساراي» يعيشان معاً.

«وَكَانَتْ سَارَايُ عَاقِرًا لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ» (تكوين ١١: ٣٠)

وُلد أبرام في المنطقة المعروفة حالياً باسم العراق. كانت مدينة «أور» الواقعة إلى الجنوب من بابل هي مسقط رأس أبرام. وقد تبع أبرام تعليمات الرب وترك بيته متوجِّهاً إلى حاران. وهناك تكلَّم الله إليه مَرَّةً أخرى.

وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ». ... فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ ... وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ

(تكوين ١٢: ١، ٤)

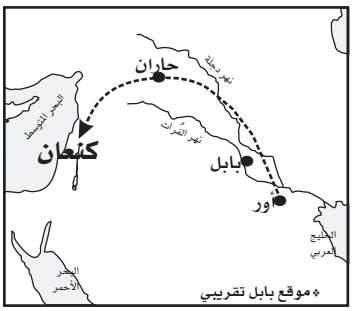

* موقع بابل تقريبي

كانت هذه نَقلة كبيرة بالنسبة لأبرام لا سيَّما أنه لم يكُن يعرف إلى أين هو ذاهب! فالله لم يُخبره بذلك. وهكذا، فقد كان ينبغي عليه أن يثق بأن الله سيقوده أثناء رحلته تلك يوماً فيوماً. وكانت وُجهته المجهولة هي كنعان التي تُعرف في يومنا هذا باسم أرض فلسطين.

«... فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ... فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ»

(تكوين ١٢: ٥، ٧)

آمن أبرام أنَّ الله سيُخلِّصه من عقاب الخطيَّة فبنى مذبحاً وقدَّم عليه ذبيحة حيوانية عن خطاياه. ورغم أنَّ الذبائح الحيوانيَّة كانت مُجرَّد صورة عن ما يلزم لإزالة الخطيَّة، إلاَّ أنَّ ذبيحة أبرام كانت دليلاً واضحاً على إقراره بحاجته لبديل يدفع أُجرة الموت بدلاً عنه. وهكذا، فقد كان أبرام يؤمن بالله مثلما فعل هابيل، ونوح، وجميع الأشخاص الأبرار الذين سبقوه.

كان أبرام يعيش حياةً شبه بدويَّة ممَّا دفع السُّكان المحلِّيين لتسميته «العبراني» بمعنى الشخص العابر أو المُرتحل. وحينما استقرَّ أبرام في منطقة واحدة لفترة طويلة، أصبح

المكان الذي يُقيم فيه يُدعى «حبرون». ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، أصبح أبرام ونسلُه يُعرفون بالعبرانيِّين.

أربعة وعود

كذلك، قطع الله لأبرام أربعة وُعود مُحدَّدة:

فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً ...[٢]
وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً ... [٢]
وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ ...
وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ (تكوين ١٢: ٢، ٣)

❖ ملحوظة: حينما يُبارك الله فإنه يُعطي فضلاً وإحساناً؛ وحينما يَلعن فإنه يجلب التعاسة والشقاء.

كان الوعد الأوَّل الذي قطعه الله هو خبر سارّ لأبرام. ولكي يُصبح أُمَّةً عظيمةً، كان ينبغي عليه أوَّلاً أن يُصبح أباً. لكن حيث أنه لم يكُن لديه أبناء لأنَّ زوجته ساراي كانت قد تجاوزت سِنَّ الإنجاب، فقد أصيب بالحيرة ولم يعرف كيف سيتحقَّق هذا الوعد! لكن حيث أنَّ الله قد قطع وعداً، فهذا يعني أنه سيُتمِّم وعده.

أمَّا الوعد الأخير فكان مُرتبطاً بالوعد الأوَّل، وكان يُشير إلى المُخلِّص بصورة مُباشرة! فقد كان الله يقول لأبرام إنَّ واحداً من نسله سيكون هو المخلِّص الموعود الذي سيُقدِّم الله من خلاله الرجاء للعالم، والذي سيُخلِّص الناس من مُشكلة الخطيَّة. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ أبرام صَدَّق الله وفرح بفكرة أنه سيرى اليوم الذي سيأتي فيه المُخلِّص.[٤]

«بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلاً: 'لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا'. فَقَالَ أَبْرَامُ: 'أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا ... ؟' ... ثُمَّ أَخْرَجَهُ اللهُ إِلَى خَارِجٍ وَقَالَ: 'انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا'. وَقَالَ لَهُ: 'هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ'. فَآمَنَ أبرام بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا» (تكوين ١٥: ١، ٢، ٥، ٦)

إنَّ الآية الأخيرة أعلاه مُحمَّلة بالمعاني. وسوف نتأمَّل في ثلاث كلمات لها معانٍ عميقة ألا وهي: «بِرّ» و«حَسِبَ»، و«إيمان». وحيث أنَّ كلمة «إيمان» بالغة الأهميَّة، فسوف أفرد لها قسماً خاصاً للحديث عنها.

البِرّ

لقد رأينا سابقاً أنَّ كلمة «بِرّ» تُستخدم للإشارة إلى كمال الله – أي أنه بلا خطيَّة، وقُدُّوس، وطاهر، ومُنزّه عن الشرور والخطايا. وما من شكٍّ أنَّ مثل هذا الكمال بعيدٌ كُلَّ البُعد عن قدرات الإنسان. ورغم أنَّ البعض يعيشون حياةً مُستقيمةً، إلاَّ أنه ما من أحدٍ يجرؤ على القول بأنه كامل.

وهذه هي النُقطة المهمة هُنا. فلكي يعيش المرء في محضر الله، يجب أن يكون بارَّاً مثل الله. ومن وُجهة نظر بشريَّة، يمكن القول بكل يقين إنَّ هذا أمر مُستحيل. لكنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ أبرام حَقَّق هذا المستوى من البِرّ – لا لأنَّه فعل ذلك بقدرته؛ بل لأنَّ الله حسبه له كذلك.

الحساب

ما المقصود بعبارة «... فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا»؟ إنَّ كلمة «حَسِبَ» تعني «قَيَّد لَه أو لحسابه».

وتستخدم الترجمة اليونانيَّة لهذه الآية كلمة قويَّة جداً للإشارة إلى كلمة «حَسِبَ»؛ وهي كلمة تتعامل مع حقيقة واقعة. فقد تكون مُفلساً تماماً فيأتي أحد أصدقائك ويقول لك إنه قَيَّد لحسابك مبلغ ١٠٠ دينار. وهكذا، فقد أصبح معك ١٠٠ دينار دون أدنى شكٍّ في ذلك. وبالتالي، فإنَّ كلمة «حَسِبَ» هي كلمة تُشير إلى حقيقة واقعة وليس إلى افتراضات.

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الرب حسب البِرَّ لأبرام. وبالتالي، لم يُكن أبرام هو مصدر البِرّ؛ بل الله. وهذا لا يعني أنَّ أبرام أصبح شخصاً بارًّا من تلقاء نفسه وراح يعيش فجأةً حياةً كاملةً هنا على الأرض؛ بل يعني أنَّ الله نظر إلى أبرام كما لو كان شخصاً بارًّا. وبذلك أصبح أبرام يمتلك كل ما يحتاج إليه للمُثول في محضر الرب.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: «كيف حصل أبرام على هذا البر الذي أتاح له أن يقف أمام الرب؟» نجد الإجابة عن هذا السؤال في الكلمة الثالثة التي سنتحدَّث عنها الآن.

«فَآمَنَ أبرام بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا» (تكوين ١٥: ٦)

نرى هنا أنَّ أبرام آمن بالله وصَدَّق كلامه ووعوده.

٣ . الإيمان الحقيقي

قد يُسيء البعض فهم هذه الكلمة الثالثة التي نتحدَّث عن «الإيمان». لهذا، يجب علينا أن نفهم بعض الأمور المُتعلِّقة بها حسب ما هو مذكور في كلمة الله:

- غالباً ما تُستخدم الكلمات الدالَّة على الإيمان والثقة كمترادفات. فعلى سبيل المثال:
  - **آمن** أبرام بالربِّ — **آمن** بما قاله الله.
  - وضع أبرام **إيمانه** في الربِّ — كان لديه **إيمان** بكلمته.
  - **وثق** أبرام بالربِّ — عرف أنَّ الله **جدير بالثقة**.
  - كان لأبرام **ثقة** في الرب — كانت **ثقته** بالله وحده.
- الإيمان الحقيقي يقوم على الحقائق وليس على المشاعر. فعندما تجلس على كُرسيٍّ ما فإنك تُلقي عليه نظرة خاطفة لكي تتأكَّد من بعض الحقائق. فإن وجدت أنَّ الكُرسي متين وقادر على حملك فسوف تجلس عليه وأنت واثق بأنه سيحملك. وبالكيفيَّة نفسها، كان إيمان أبرام قائماً على حقيقة وعد الله له. وهكذا، فهو لم يكن يتبع الله لأنه شعر بمشاعر روحيَّة غامضة؛ بل كان الأمر حقيقة واقعة كما هو واضح في هذه المُعادلة الحسابيَّة البسيطة:

قال الله: «سوف يكون لك ولد».

+ الله عظيم ويستطيع أن يفعل أي شيء.

= سوف يكون لأبرام ولد.

- إنَّ الأمر لا يتعلَّق بمقدار إيمانك؛[٥] بل بالإله الذي تضع ثقتك فيه. فإن كان لديك إيمان

كثير بإله باطل فهذا لن يُساعدك على الإطلاق. لكن كما سنرى لاحقاً، فإنَّ قدراً ضئيلاً من الإيمان بالإله الحيِّ الحقيقي قد أحدث فرقاً كبيراً بالنسبة لأبرام. وهكذا، فإنَّ النقطة الجوهريَّة لا تتعلَّق بمقدار إيمانك؛ بل بالإله الذي تضع ثقتك به.

- الإيمان الحقيقي (بحسب تعريف الكتاب المقدَّس) لا يتوقَّف على القبول العقلي للحقائق؛ لأنه لو كان كذلك لما أمكن تسميته إيماناً حقيقيًّاً.

يمكن توضيح فكرة الإيمان بالمثال التالي: صديقان يسيران معاً فيصلان إلى جسر مُعلَّق مُتأرجح. وعندها، يقول أحدهما للآخر: «هل تعتقد تؤمن أنَّ هذا الجسر آمن؟» فيُجيبه الآخر: «بالطبع!» فيقول الأوَّل: «إذن، تعال بنا نعبُره!» فإن تردَّد الصديق الثاني وبدأ في اختلاق الأعذار لكي لا يَعبُر الجسر، فسوف يكون إيمانه هذا مشكوكاً فيه. فهو يعترف بفمه فقط أنه يؤمن بالجسر، لكنَّ تصرُّفاته تدُل على أنه يشك فيه في قلبه. والنقطة المهمة هنا هي أنَّ إيماننا يجب أن ينعكس على أعمالنا.

كان إيمان أبرام يتخطَّى حدود الموافقة العقليَّة. فقد جازف بحياته، وسُمعته، وكل ما لديه بسبب وعود الله له. ولأنه آمن، فقد أطاع الله، وارتحل إلى أرضٍ غريبة، وقَدَّم الذبائح من مُنطلق ثقته بأنَّ الله سيُخلِّصه من عقاب الخطيَّة.

في الوقت نفسه، يجب أن نُدرك أنَّ طاعة أبرام لم تكُن مُجرَّد مُحاولة منه لإثبات حقيقة إيمانه سواء لله أو للآخرين. بل إنَّ قيامه بالأشياء التي أمره الله بها كان نتيجةً طبيعيَّةً لإيمانه بالله.

لقد طرحنا في السابق سؤالاً مؤلفاً من شقَّين: (أ) كيف يمكننا أن نتخلَّص من دَين الخطيَّة؟ (ب) كيف يمكننا أن نحصل على بِرٍّ يُعادل بِرَّ الله لكي نكون مقبولين في مَحضره؟» والحل الذي يُقدِّمه الكتاب المقدَّس للشق الثاني من السؤال هو حل بسيط: ثق بالرب، وآمن بوعوده؛ وعندها، سوف يُعطيك الله البر الذي تحتاج إليه لكي تمثُل في محضره.

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ أبرام كان يمتلك هذه الثقة في أنَّ الله سيحفظ كلمته، وأنه:

«كَانَ يَنْتَظِرُ الْمَدِينَةَ الَّتِي لَهَا الأَسَاسَاتُ، الَّتِي صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللهُ» (عبرانيِّين ١١: ١٠)

كان أبرام يتوق إلى السَّماء. ورغم أنَّه كان يعرف أنَّ جسده سيموت في نهاية المطاف، إلاَّ أنه كان يؤمن أنَّ الله قد أعطاه البِرَّ الذي يحتاج إليه لكي يَمثُل في محضره ويبقى معه إلى أبد الآبدين.

لكن ما زال هناك سؤال لم نُجب عنه: «كيف أمكن لأبرام أن يعيش في السماء إن لم يكُن دَيْن خطيئته قد سُدِّد بالكامل؟» هذا هو الشق الآخر من ذلك السؤال المزدوج. فلا يُمكن فصل موضوع التخلُّص من دَيْن الخطيَّة عن موضوع الحصول على البِرِّ المطلوب. فقد كانت عواقب الخطيَّة قائمةً. وبالتالي، كيف كان بالإمكان تسديد ذلك الدَّين إذا كان أبرام موجوداً في السَّماء؟

في الحقيقة أنَّه كانت لدى الله خطة لمعالجة دَيْن الخطيَّة. وكان كُلُّ ما ينبغي على أبرام أن يفعله هو أن يثق بأنَّ الرب سيحفظ وعده؛ فهو المُخلِّص.

٤ . هاجر وإسماعيل

انقضَت سنوات وسنوات دون أن يُرزَق أبرام وساراي بأبناء. لهذا، فقد قرَّرا حل الموضوع بطريقتهما الخاصَّة! وبحسب الطريقة المقبولة اجتماعيًّا في ذلك الزمان للتعامل مع العُقم، أخذت ساراي خادمتها «هاجر» وقدَّمتها لزوجها أبرام لكي يضطجع معها ويُنجب منها أبناءً. وبالفعل، أنجب أبرام ابناً من هاجر أسماه إسماعيل. وبهذا، أصبح لدى أبرام نسل حَيّ الآن يمكنه أن يُتمِّم وعد الله. على الرغم من ذلك، كانت هُناك مشكلة! فقد عالج أبرام وساراي الأمر بطريقتهما الخاصة وليس بطريقة الله.

«وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً، ... فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ» (تكوين ١٧: ١، ٥)

اعتقد أبرام (الذي أصبح اسمه إبراهيم) أنه لم تَعُد لديه مُشكلة في قَبول ما يقوله الله له بشأن المُخلِّص الموعود لأنه أصبح لديه نسل حيث أنَّ هاجر قد أنجبت له ابناً ألا وهو إسماعيل! لكنَّ الأمر المُدهش هو أنَّ الله استمرَّ في الحديث عن ذلك المُخلِّص الموعود الذي سيأتي!

«وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: سَارَايُ امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ. وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ابْنًا. أُبَارِكُهَا فَتَكُونُ أُمَمًا، وَمُلُوكُ شُعُوبٍ مِنْهَا يَكُونُونَ» (تكوين ١٧: ١٥، ١٦)

لم يكن ذلك بالخبر السار. فلماذا يذكُر الله سارة بعد كُلِّ ما حدث؟ فقد أنجب إبراهيم ابناً ألا وهو إسماعيل! أفلا يُمكن أن يأتي المُخلِّص الموعود من خلاله؟ ولماذا كان ينبغي أن يأتي المُخلِّص من سارة؟ فقد كانت سارة عجوزاً وكان حَمْلُها وإنجابُها أمراً مُستحيلاً!

«فَسَقَطَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ وَضَحِكَ، وَقَالَ فِي قَلْبِهِ: ‹هَلْ يُولَدُ لابْنِ مِئَةِ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟› وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلّٰهِ: ‹لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!›» (تكوين ١٧: ١٧، ١٨)

حاول إبراهيم أن يقول لله إنَّ إسماعيل يصلُح لأن يكون مرشحاً مقبولاً! لكن استمع إلى رَدِّ الله عليه:

«فَقَالَ اللهُ: بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ» (تكوين ١٧: ١٩-٢١)

وهكذا، فقد أوضح الله لإبراهيم وسارة أنه لا يَقبل إلاَّ بالأشياء التي تتمُّ حسب طريقته هو. لهذا، سوف تُنجب سارة الطفل الموعود خلال سنة واحدة، وقد أطلق الله على ذلك الطفل اسم «إسحاق». في الوقت نفسه، لم يَنس الله إسماعيل أيضاً. وسوف نقرأ المزيد عن إسماعيل لاحقاً في هذا الفصل.

الزوَّار الثلاثة

راح إبراهيم وسارة ينتظران وعد الله من جديد. وفي تلك الأثناء، كلَّمهما الله ثانيةً في هيئة رجل يُرافقه اثنان من الملائكة في هيئة بشر أيضاً.

قال الرب: أَيْنَ زَوْجَتُكَ؟

أجاب إبراهيم قائلاً: هَا هِيَ فِي الْخَيْمَةِ.

فقال الرب: إِنِّي أَرْجِعُ إِلَيْكَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ فَتَكُونُ سَارَةُ آنَئِذٍ قَدْ وَلَدَتْ لَكَ ابْناً. وَكَانَتْ سَارَةُ وَرَاءَهُ، عِنْدَ بَابِ الْخَيْمَةِ، فَسَمِعَتْ حَدِيثَهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ عَجُوزَيْنِ طَاعِنَيْنِ جِداً فِي السِّنِّ وَقَدْ تَجَاوَزَتْ سَارَةُ سِنَّ الْيَأْسِ. فَضَحِكَتْ سَارَةُ فِي نَفْسِهَا قَائِلَةً: أَبَعْدَ أَنْ فَنِيَ عُمْرِي وَأَصْبَحَ زَوْجِي شَيْخاً يَكُونُ لِي هَذَا التَّنَعُّمُ؟

فَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: أَحَقّاً أَلِدُ ابْناً وَقَدْ بَلَغْتُ سِنَّ الشَّيْخُوخَةِ؟ أَيَتَعَذَّرُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟ سَأَرْجِعُ إِلَيْكَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ فَتَكُونُ سَارَةُ قَدْ أَنْجَبَتِ ابْناً.

سارة: فَخَافَتْ سَارَةُ وَأَنْكَرَتْ قَائِلَةً: لَمْ أَضْحَكْ.

فَقَالَ الرب: لاَ، بَلْ ضَحِكْتِ.

(تكوين ١٨: ٩-١٥ – التفسيرية)

لا بُدَّ أنَّ تلك الحادثة كانت إعلاناً لسارة لكي تعرف أنَّ الله العليم قد قرأ أفكارها. ورغم أنَّها حاولت أن تُنكر أنها ضحكت في قلبها، إلاَّ أنَّ الإنكار لا ينطلي على الله. لهذا، فقد واجهها الرب قائلاً: «لا، بَلْ ضَحِكْتِ!» فالله يُحمِّل كل شخص مسئوليَّة أفعاله.

آمن إبراهيم وسارة بأنَّ الله سيحفظ وعده. لكن كما نرى، فقد كان إيمانهما مُتأرجحاً بين صُعود وهُبوط! ففي بعض الأحيان، كان إبراهيم وسارة يُصارعان مع الشك. لكنَّ الأمر المُدهش بشأن الله هو أنه وَعَد بأنه سيُكرم الإيمان حتَّى ولو كان بسيطاً بحجم حبَّة الخردل المعروفة بصغرها.[٥] وكما ذكرنا سابقاً فإنَّ النقطة المهمَّة ليست مقدار الإيمان الذي لديك؛ بل الإله الذي تؤمن به. وقد كان إبراهيم وسارة يؤمنان بالله الحيِّ الحقيقي ويضعان ثقتهما فيه.

٥. إسماعيل وإسحاق

«وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ، وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ. فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ ابْناً فِي شَيْخُوخَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللهُ عَنْهُ. وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ إِسْحَاقَ» (تكوين ٢١: ١-٣)

حفظ الله وعده لإبراهيم وسارة رغم أنهما كانا قد بلغا سنَّ الشيخوخة. فالله يحفظ وعوده دائماً ويُسَرُّ بعمل المُستحيل. وهكذا، أصبح لإبراهيم ابنان: إسحاق من سارة، وإسماعيل من هاجر. ورغم أنَّ هذا الرجل العجوز أنجب المزيد من الأبناء، إلاَّ أننا لا نعرف عنهم الكثير كما نعرف عن إسماعيل وإسحاق.

حينما كان عُمر إسماعيل ستَّة عشر عاماً تقريباً، وعُمر إسحاق سنتين فقط، وقعت حادثة

غريبة غَيَّرت حياة إسماعيل وتاريخ العالم.

« وَرَأَتْ سَارَةُ أَنَّ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَسْخَرُ مِن ابْنِهَا إِسْحقَ » (تكوين ٢١: ٩ – التفسيرية)

سخر إسماعيل من إسحاق. فقد كان إسماعيل فتىً في سنِّ السادسة عشرة ولم يكُن يُدرك خطَّة الله لإسحاق أو أنه سيجعله أباً لأمَّة عظيمة يخرج منها الأنبياء، والكتاب المقدَّس، والمُخلِّص نفسه في نهاية المطاف! أمَّا سارة فلم تحتمل سُخرية إسماعيل من ابنها.

«فَقَالَتْ سارة لإِبْرَاهِيمَ: 'اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ'. فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ» (تكوين ٢١: ١٠، ١١)

رغم أنَّ الله قال بأنَّ المُخلِّص الموعود سيأتي من نسل إسحاق، إلاَّ أنَّ ذلك لا يُلغي حقيقة أنَّ إسماعيل هو ابن إبراهيم أيضاً. ومن الواضح أنَّ إبراهيم كان يُحب ابنه إسماعيل أيضاً. وهكذا، أصبح إبراهيم عالقاً بين غيرة زوجته سارة ورغبتها في حماية ابنها إسحاق من ناحية، وبين محبَّته لإسماعيل من ناحية أخرى. وهُنا تدخَّل الله وقال لإبراهيم:

«لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ»

(تكوين ٢١: ١٢، ١٣)

وهكذا، فقد كان الله يقول لإبراهيم أن يُعطي هاجر حُرِّيتها.

«فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاء وَأَعْطَاهُمَا لهَاجَرَ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ، وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ، لأَنَّهَا قَالَتْ: 'لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ'. فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ» (تكوين ٢١: ١٤–١٦)

يُمكن للمرء أن يتخيَّل حالة اليأس التي مَرَّت بها هاجر في ذلك الوقت. فقد اعتقدت أنه سيتعيَّن عليها أن تُربِّي ابنها وحدها دون أيَّة مُساعدة ودون مكانٍ تُقيم فيه في هذا العالم. لكنَّها نسيت في وسط همومها أنَّ الله قادرٌ على العناية بها وبابنها إسماعيل.

«فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ، وَنَادَى مَلاَكُ اللهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: 'مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً'. وَفَتَحَ اللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاء، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ. وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ»

(تكوين ٢١: ١٧–٢٠)

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله كان مع إسماعيل إلى أن كبر وصار رجُلاً. ورغم أنَّ مُخلِّص العالم كان سيأتي من نَسل إسحاق، إلاَّ أنَّ الله بارك إسماعيل أيضاً. فالله هو إله جميع البشر! وكما وَعد الله، أصبح إسماعيل بالفعل أُمَّةً عظيمةً حيث أنَّ الكثير من الشعوب العربيَّة ترجع في أصلها إلى إسماعيل.

«وَسَكَنَ إسماعيل فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» (تكوين ٢١: ٢١)

٦ . الربُّ يُدَبِّر

بعد مُغادرة إسماعيل، ينتقل الكتاب المقدَّس إلى واقعةٍ فريدةٍ يَصعُب نسيانها في حياة النبيِّ إبراهيم:

وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ!».
فَقَالَ: «هأَنَذَا».
فَقَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ».
فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلاَمَيْهِ: «اجْلِسَا أَنْتُمَا هَهُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا».
فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: «يَا أَبِي!».
فَقَالَ: «هأَنَذَا يَا ابْنِي».
فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟»
فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا.
فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!».
فَقَالَ: «هأَنَذَا».
فَقَالَ: «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي».
فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ. فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهْوَهْ يِرْأَهْ» الربُّ يُدَبِّر. حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى».
وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي» (تكوين ٢٢: ١-١٨)

يا لها من قصَّة عميقة ومؤثِّرة بالفعل! رُبَّما يُخيَّل إلينا للوهلة الأولى أنَّ الله يؤيِّد تقديم ذبائح بشريَّة له. لكن يجب علينا أن نقرأ القصَّة كاملةً وأن ننظر إلى ما هو أبعد من ذلك!

خُذ ابنَك

أمر الله إبراهيم أن يأخذ ابنه إسحاق وأن يُقدِّمه ذبيحةً على المذبح؛ أي أن يذبحه! ورغم أنَّ كلمة الله تتحدَّث عن إسحاق باعتباره الابن الوحيد لإبراهيم، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنه لم يكُن لإبراهيم أبناء آخرون. لكنَّ الرب كان يُوجِّه نظر إبراهيم إلى الابن الذي سيأتي منه المُخلِّص. وقد انتظر إبراهيم هذا الابن لسنوات طويلة. وفي الحقيقة أنَّ إسحاق لم يكُن الابن الذي وعد الله بأنه سيكون أباً لأمَّةٍ عظيمةٍ فحسب، بل كان

أيضاً الابن الذي سيأتي من نسله المُخلِّص الموعود. وهكذا، فقد كان الله واضحاً تماماً في الأمر الذي أصدره لإبراهيم بأن يُقدِّم ابنه إسحاق ذبيحة! لكن كيف يُمكن لابنٍ ميِّتٍ أن تكون له ذُريَّة؟

من المؤكَّد أنَّ طلب الله قد سبَّب حيرةً كبيرةً لإبراهيم. ومن المُرجَّح أنَّ إبراهيم كان قد شاهد مراراً القرابين البشريَّة التي كانت الأمم الأخرى تُقدِّمها لاسترضاء آلهتها في ذلك الزمان. رغم ذلك، كان الأمر الذي أصدره الله لإبراهيم بأن يذبح ابنه يُخالف كل ما عرفه إبراهيم عن الخالق. فقد وعد الله إبراهيم أن يكون لابنه إسحاق نسل كثير. وهكذا، لم يكُن عقل إبراهيم قادراً على التوفيق بين وعد الله السابق له وبين أمره الحالي. رغم ذلك، كان إبراهيم قد تعلَّم أنَّ الرب جدير بالثقة؛ لهذا فقد فعل كل ما أمره الله به. فقد نادى ابنه، وجهَّز حماره، وأخذ كل ما يلزمه لتقديم محرقة للرب، وعقد العزم على تنفيذ ما أمره الله به. ولا بُدَّ أنَّ قلب إبراهيم كان يتمزَّق حُزناً وألماً! فقد كانت الطاعة في هذا الأمر مؤلمة جداً لإبراهيم، لكنَّها أظهرت إيمانه المُطلَق بصلاح الله.

لا يتركنا الكتاب المقدَّس نُخمِّن ماذا كان يُفكِّر إبراهيم في تلك اللحظات. بل إنَّ كلمة الله تقول لنا إنَّ إبراهيم كان يتمسَّك بوعد الله، وكان مُقتنعاً بأنَّه حتَّى لو ذبح ابنه إسحاق فسوف يُقيمه الرب من الموت:

«بِالإِيمَانِ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ وَهُوَ مُجَرَّبٌ. قَدَّمَ الَّذِي قَبِلَ الْمَوَاعِيدَ، وَحِيدَهُ... إِذْ حَسِبَ أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى الإِقَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ أَيْضًا»

(عبرانيِّين ١١: ١٧، ١٩)

يقول لنا الكتاب المقدَّس إنَّ الله كان يمتحن إيمان إبراهيم. وسوف نفهم سبب ذلك في الصفحات القليلة القادمة.

انطلق إبراهيم، وإسحاق، واثنان من خُدَّام إبراهيم إلى جبل المُرَيَّا. وحينما اقتربوا من ذلك الجبل، قال إبراهيم للغُلامين اللذين كانا برفقته أن ينتظراه هناك، ثُمَّ أكمل الطريق هو وإسحاق وحدهما إلى أعلى الجبل. كان إبراهيم يحمل معه السكِّين والنار، وكان ابنه إسحاق يحمل الحطب. وأثناء الطريق، سأل إسحاق أباه إبراهيم عن الأضحية. فمن المؤكَّد أنَّ إسحاق كان قد رأى الكثير من الذبائح من قَبل. ولم يكُن الأمر يحتاج إلى كثيرٍ من الذكاء لكي يُدرك غياب أهم عُنصر ألا وهو الذبيحة نفسها:

«وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: 'يَا أَبِي!'. فَقَالَ: 'هأَنَذَا يَا ابْنِي'. فَقَالَ: 'هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟'» (تكوين ٢٢: ٧)

هل كان إسحاق يُفكِّر في تلك اللحظات في طُقوس التضحية بالأبناء التي كانت تُمارس في بعض الديانات المُجاورة؟ في الحقيقة أنَّنا لا نعرف ما الذي كان يدور في ذهنه بالتحديد؛ لكنَّ الشيء المؤكَّد هو أنَّ إيمانه بالله كان قويَّاً هو الآخر. وحينما أجابه أبوه إنَّ الله سيُدبِّر الخروف للمُحرقة، تابع إسحاق طريقه مع أبيه بكل خضوع حيث يقول الكتاب المقدَّس إنهما تابعا طريقهما معاً.

أرشد الله إبراهيم إلى المكان المُحدَّد الذي يُريده أن يبني فيه المذبح على جبل المُريَّا. وبعد

سنواتٍ طويلة، تمَّ بناء الهيكل اليهودي ثُمَّ قُبَّة الصخرة في الموقع نفسه.

إبراهيم يوثق إسحاق

«فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ» (تكوين ٢٢: ٩)

لم يكُن إسحاق طفلاً صغيراً. فالكلمة العبريَّة التي تُترجَم «ولد» أو «غُلام» كانت تُستخدم للإشارة إلى الأبناء الذكور منذ حداثتهم إلى أن يصلوا السن التي تؤهلهم للخدمة العسكريَّة. ومن المؤكَّد أنَّ إسحاق كان في سنٍّ تؤهله للمقاومة والدفاع عن نفسه. ورغم أنَّ إبراهيم كان شيخاً طاعناً في السنِّ، إلاَّ أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُشير إلى أيِّ عِراك بينه وبين ابنه إسحاق في ذلك المكان. وهكذا، من الواضح تماماً أنَّ إسحاق خضع لأبيه ممَّا يدل على ثقته به لأنه كان يعرف أنَّ أباه يؤمن بالله ويُطيع كلمته.

أصبح إسحاق بلا حول ولا قُوَّة بعد أن ربطه أبوه ووضعه على المذبح. فقد تلقَّى أبوه أمراً واضحاً ومُباشراً من الله بأن يذبحه. ولم تكُن لدى إسحاق أية وسيلة يستطيع من خلالها أن يُخلِّص نفسه. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ إبراهيم مَدَّ يده وتناول السكِّين. ارتجفت ذراع ذلك الرجل العجوز، وارتخى فكَّاه، وكاد قلبه أن يتمزَّق من شدَّة الحُزن والألم. فها هو

مُزمعٌ على ذبح ابنه الحبيب! وما من شكٍّ أنَّ إبراهيم واجه ضغطاً هائلاً في تلك اللحظات. رغم ذلك، ارتفعت اليد المُرتجفة ببُطء فلمع نَصْل السكِّين المعدني تحت أشعة الشمس. وهكذا، فقد عقد إبراهيم العزم على ذبح ابنه بالفعل امتثالاً لأمر الله؛ وعندها تدخَّل الله من سمائه مُنادياً إبراهيم:

«لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي» (تكوين ٢٢: ١٢)

من المؤكَّد أنَّ إبراهيم وإسحاق بكيا في تلك اللحظة من شدَّة الفرح والراحة. فقد تدخَّل الله أخيراً ونقض حُكم الموت! ورغم أنَّ حُكم الموت كان ما زال قائماً، إلاَّ أنه زال عن إسحاق على أقل تقدير!

البديل

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله دَبَّر حيواناً ليكون بديلاً عن إسحاق:

«فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ ...» (تكوين ٢٢: ١٣أ)

كان الكبش عالقاً من قرنيه بفروع أشجار الغابة ممَّا منعه من الفرار:

«... فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ»

(تكوين ٢٢: ١٣ب)

وهكذا، كان الموت لازماً ضرورياً وقائماً؛ لكنَّ الذي مات هو الكبش عوضاً عن إسحاق. وبهذا، نجا إسحاق من الموت لأنَّ كبشاً بريئاً مات بدلاً عنه؛ فقد وفَّر الله البديل. وعندها، أدرك إبراهيم أنَّ الله:

«... مُخَلِّصُهُ فِي زَمَانِ الضِّيقِ ...» (إرميا ١٤: ٨)

«فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ يَهْوَهْ يِرْأَهْ الربُّ يُدَبِّر. حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى» (تكوين ٢٢: ١٤)

لاحظ كيف أنَّ إبراهيم سَمَّى ذلك الجبل «يَهْوَه يَرْأَه» (أي: «الربُّ يُدَبِّر»). فقد رأينا كيف قام الله بتدبير ذبيحة بديلة عن إسحاق. لكن لماذا لم يُطلق إبراهيم على ذلك الجبل اسم «يَهْوَه رَأى» أو «الربُّ دَبَّرَ» (بصيغة الماضي)؟ سوف نُجيب عن هذا السؤال في فصلٍ لاحق.

درسٌ للجميع

تنتهي القصَّة بقيام الله بتأكيد وعده لإبراهيم بأنه سيُكَثِّر نسله من خلال إسحاق ليُصبح أُمَّةً عظيمةً – أُمَّة إسرائيل. وقد تضمَّن هذا الوعد أنَّ المُخلِّص الموعود سيأتي من نسل إبراهيم وإسحاق. كما أنَّ الله قال لإبراهيم إنَّ الآتي سيكون بَرَكةً لجميع الأمم.

«بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، ... يَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي» (تكوين ٢٢: ١٦، ١٨)

كان أمر الله لإبراهيم بأن يُضحِّي بابنه أمراً فريداً مقصوراً على إبراهيم فقط. فلم يكُن الله عازماً على أن يأمر أيَّ شخص آخر بالقيام بنفس ذلك الشيء ثانيةً. وقد أراد الله أن يوصل بعض الحقائق لإبراهيم (ولنا أيضاً) عن الدينونة، والإيمان، والخلاص من خلال بديل.

وكما أنَّ إسحاق كان محكوماً عليه بالموت بأمرٍ مُباشر من الله، فإنَّ البشريَّة كلها محكومٌ عليها بالموت أيضاً.[٦] لقد كان إسحاق مربوطاً فوق المذبح وعاجزاً عن تخليص نفسه؛ لكنَّ أباه إبراهيم كان يثق بالرب ويؤمن أنَّ إلهه المُحب سيحل تلك المُعضلة بطريقة ما. وهذا هو ما فعله الله تماماً. فقد دَبَّر طريقةً لإنقاذ إسحاق من الموت عن طريق توفير بديل. وكانت تلك الطريقة تقوم على موت نفس عوضاً عن نفس أخرى؛ أي موت نفس بريئة بدلاً من النفس المُخطئة.

وكما قام هابيل بتقديم خروف ليموت عوضاً عنه، فقد مات الكبش أيضاً عوضاً عن إسحاق. وكما أنَّ الله قَبِلَ ذبيحة هابيل، فقد قَبِل أيضاً أن يكون ذلك الكبش بديلاً عن إسحاق. كانت تلك الفكرة هي فكرة الله. وكانت هذه الفكرة تعني أنه ينبغي على الإنسان أن يأتي إلى الله بالطريقة التي حَدَّدها الله نفسه، وأن يؤمن بأنَّ كلمة الله صادقة.